الانتقاد الهدام

المتروبوليت سابا (اسبر)

تاتيانا غوريتشيفا مفكّرة روسيّة اهتدت، ورفقاء لها، إلى الإيمان، من بعد بحث وضياع طويلين. أتت إلى الإيمان الأرثوذكسيّ بقوّة وشدّة لا تعرفان المساومة ولا التخاذل. تقول في إحدى كتاباتها إنّ المسيحي في روسيا (الشيوعيّة) يعيش المثال الشخصي الصامت، كنوع من الاحتجاج على الأخطاء الموجودة في المجتمع والعجز المفروض على الكنيسة. أي إنّ ردّ فعل المسيحيّ المباشر على أخطاء الغير، يكون بتجاوزها في مسلكه ومسرى حياته هو، لا بالتصويب عليها عند غيره.

يلفت قارئها العمق الروحي في كتاباتها، ويجعله يتساءل لماذا لا يوجد هذا العمق عند كل من عرف المسيح؟ أن ترى الخطأ في مجال ما، أمر إيجابيّ، باعتباره دافعاً إيّاك إلى المساهمة في إصلاحه، ولكن أن تركّز عليه في غيرك، وتتجاهله فيك، فأمر خطِر يستحقّ التوقّف عنده. يقول الإنجيل المقدّس "لماذا تنظر إلى القشّة في عين أخيك، ولا تبالي بالخشبة في عينك؟"(متى ٣:٧).

ثمّة ثرثرة دائمة في الأوساط الكنسية. لغط حول كلّ شيء. تشكيك في كلّ عمل ومبادرة. انتقاد لا يتوقّف. مطالب لا تنتهي. والحصيلة تراجع روحيّ وأخلاقيّ عميم، على صعيد الفرد والجماعة. يقول سفر الأمثال "كثرة الكلام لا تخلو من الزلل" (١٠: ١٩) . ثمّة فرق كبير بين النقد والانتقاد.

فأن تنقد أمراً ما، يعني أنّك تدرك أبعاده جيّداً، وتمسك بخيوطه بفهم، وترى، بعين ثاقبة، مواطن النجاح والفشل، والقوة والضعف فيه، فتصوّب عليها بهدف المساهمة في تطويرها وتحسينها وتقدّمها. النقد بهذا المعنى عمل علمي، يقوم به أصحاب الاختصاص بهدف إيجابيّ.

أمّا الانتقاد فهو صنيعة الثرثرة والكلام السطحي المكتفي بالهجوم. لا يميّز بين الفعل والفاعل. محوره، في الواقع، لا العمل المنتقَد، بقدر ما هو الشخص القائم بالعمل.

يودي الانتقاد إلى تثبيط الهمم، ونشر روح الإحباط واليأس، و"تهبيط" المعنويّات. والنتيجة تكسير المجاذيف، كما نقول بالعاميّة.

بينما يركّز النقد على المشروع موضوع النقد، سواء كان عملاً أم فكراً أم نظرية... بهدف التقويم والإصلاح والإغناء؛ يصبّ الانتقاد جام حقده وغضبه على الشخص أو الأشخاص القائمين بالمشروع أيّاً كان.

الناقد إنسان مزوَّد بالوسائل اللازمة للنقد البنّاء، يعرف متى وكيف وأين يكون نقده ذا ثمر إيجابيّ؛ إنّه خبير في انتقاء الكلمات، ولائق في طرح الرؤى الفضلى؛ يحيط علماً بكلّ جوانب الأمر موضوع نقده، لذلك يؤدّي نقده إلى البنيان. أمّا المنتقِد، فإنسان جاهل، همّه أن يهاجم ويشتم ويحطّم، وينشر التشاؤم، ويمنع الفرح في اللحظة الحاضرة. يتقن الكلام الجارح، ويكثر من تبيان العيوب، التي يراها هو، بسبب من ضيق أفقه وأنانيته وسلبيته.

يحرّك الفهمُ الناقد، فيما يتملّك الغضب المنتقِد. وفي حين يسعى الناقد إلى الارتقاء، ويطلق المبادرات، بدافع النيّة الطيّبة المحِبّة، يقتل المنتقِد كلّ مسعى إلى الأمام، ويوزّع الإحباط في كلّ مكان، بداعي ظلمته الروحيّة.

لك أن تكون إيجابيّاً بنّاءً، مساهماً في كلّ صلاح، مؤيّداً لكلّ عمل إيجابيّ وخيّر، وفاعلاً في ديمومته وتوسيعه؛ ولك أن تكون عكس هذا بالكليّة. إن اعتبرت نفسك مسيحيّاً حقّاً، فأنت مُجبَرٌ على أن تكون من الفئة الأولى. فإيمانك، إن كان حيّاً، يسائلك، دوماً، حول سعيك إلى تنمية ذاتك روحيّاً، وإلى الاستزادة من الفضائل، ومعرفة الذات، وتنقيتها. المسيحيّ الحقّ يطالب ذاته أوّلاً. يسعى إلى عيش قناعاته، لا إلى فرضها على الآخرين بالعنف. يفهم كلام الإنجيل موجَّهاً له هو، ولا يقرؤه مُديناً الآخرين به. لذلك تراه لا يتوقّف عند العثرات كثيراً. فمن خلال اختباره لضعفه، يقدِّر ضعف غيره ويرحمه. إنّه إنسان يتوق إلى إحلال ملكوت الله حيثما يكون، ويدرك جيّداً أنّ ملكوت الله ليس هنا ولا هناك، وإنّما في داخله، أوّلاً وقبل كلّ شيء. تراه يعمل على ذاته، ويشارك غيرَه في كلّ ما يراه مفيداً، ويرى في نفسه قدرة على المساهمة فيه.

إنْ قام غيرك بعمل صالح، فأنت تفرح لعمله، مهما كان ناقصاً. إنْ كنت مسيحيّاً أميناً تمدّ له يد العون، وتبرّر له نقصه، ولا تبادر إلى مهاجمته وتجريحه. وإن كنت كسولاً ممتنعاً عن عمل المحبّة، ولا تساهم ولو في كمشة قمح تعطيها لمعوز وجائع، فلك أن تصمت كليّاً، وتخجل من نفسك، إن علا صوتك بالانتقاد أو الاحتجاج. طالِبْ نفسك بالاهتمام بإخوتك، قبل أن تطالبهم بالاهتمام بك. ليس لك حقّ عند أحد لتطالبه به، لك واجب تجاه ذاتك لتقوم به أنت. إن كنت مسيحيّاً حقّاً، تفرح لأخيك عندما تراه ناجحاً.

كم هو عميم ومؤلم الانحطاط الروحيّ والأخلاقيّ، في قلب الكنيسة! ثمّة من يتعبون ويبذلون جهوداً من وقتهم وصحتهم ومالهم من أجل الكنيسة، على الرغم من النقائص التي تعتور عملهم وخدمتهم. وهل من عمل كامل؟ عندما لا تقدم خدمة، وتحصر دورك في الهجوم السلبي على من يعمل بقدر معرفته وتهاجمه، فأنت تتصرّف على عكس ما يحمّلك إيمانك إيّاه، فتؤذي نفسك والآخرين.

لو علمت مقدار التعب الذي يقوم به الكثيرون مجاناً في كنيستك، لخجلت ممّا تفعله، وبادرت إلى موقف أكثر إيجابية وبناء. لقد أعطاك الله إمكانات كثيرة، لو امتلكت عيوناً روحيّة لنظرتَ في داخلك ورأيتها، وأبطلت انتقادك، وصرت أميناً على القليل، فاستأهلت قول الرّبّ لك: "أقيمك على الكثير، فادخل إلى فرح ربك" (متى ٢٥: ٢١).